صوت الموت والحياة
في رواية " التوابيت " لعز الدين ميهوبي

د كواري مبروك
جامعـــة طاهري محمد بشار

الملخص :

إن الكتابة الروائية هي التاريخ الوحيد الذي ينبض بالحقيقة، لأنها تتساءل عما ما جرى من دون حذف أو زيادة . وبما أن الرواية سرد أحداث وقعت أو محتملة الوقوع، فإن الشيء المكتوب وحده هو الذي لا ينسى لأنه مكتوب

Abstract :

Voice of life and death in the Coffins by novelist Azzedine Mihoubi

Fiction writing is the only history which tells the truth, because it wonders what happened with no additions or omissions. Since the novel is the narration of events that happened or are likely to happen, what is written is the only thing that will not be forgotten because it is written.

إن الانتقال والتحول من كتابة جنس أدبي إلى آخر، هو تحول في الرؤيا الفكرية الفنية والجمالية فالارتحال من العزف بالكلمات، إلى بناء صرح سردي روائي مترامي الأبعاد . هو انتقال من الصوت إلى الصمت . من همس الأذن إلى إشعاع العين . والتحول من التدفق الشعري والانفعال الوجداني، عبر تداعي الكلمات المنفلتة الراكضة فوق الصفحات بالصور والإيقاع في الشعر، إلى الكتابة التجربة في الرواية التي هي أمر ليس ميسور المنال لأي كان ... لأن الكتابة الروائية هي نتاج تجربة، وجهد فكري وتقنية سردية عالية تمكن الروائي من بناء نص متكامل الأبعاد، تمد أحداثه معتصرة امتداد الزمن وأهواله -أحداثه- بين دفتي عمل أدبي مهما كان حجمه ...

فالروائي الشاعر حاض غمار الكتابة الروائية، وكان له تفرده في هذا الجنس ومن أعماله :

1- التوابيت "رواية" 2003، منشورات أصالة.
2- اعترافات تام سيتي (رواية من جزأين) 2007، ، منشورات تالة، الجزائر.
3- اعترافات أسكرام (رواية) 2009، منشورات البيت
4- إرهابيس أرض الإثم والغفران" 2013

الكتابة السردية مغامرة ومعاناة . مسلك وعر . والحفر والتنقيب في دهاليزها أمر بالغ التعقيد فمسك الدلالة المراوغة، وملامسة الأنساق المضمرة في الملفوظ السردي، ليس ميسورا للدارس لما يتطلبه البحث من إمكانيات معرفية، وممارسة نقدية ملازمة لجنس الرواية، باعتبارها الجنس

السردي الذي باستطاعته استيعاب التجربة الإنسانية في زخمها المعرفي الفكري الفني والوجداني ... في كل أبعادها المتناقضة ...

الكتابة السردية عند عز الدين ميهوبي، وسيلة لممارسة فعل الوجود لتغيير - إن أمكن - ما هو موجود في الساحة الفكرية. بكشف زيف ما هو واقع، وفك سننه، وتعرية شفراته . ليعاين المتلقي التجربة الفنية التي تدين الأحداث، والممارسات الواقعية الخاطئة، التي أفرزتها الميكانزمات المتناقضات لصيرورة الفعل الحضاري في فترة من تاريخ الجزائر الحديث " فترة الإرهاب "

إن الهاجس المسيطر على متن النص الروائي"التوابيت" الخوف، القلق، الحيرة والتذمر... من الموت المباغت دون سبب .. المنبثق من رصد المواقف الدرامية، التي كانت تلاحق السارد من أول " كابوس" شاهده ؛ بداية الرواية ؛ إلى آخر فصل "التعازي" . فالدم طافح على صفحات هذا النص، الذي هو وثيقة تاريخية شاهدة على محنة ألمت بالجزائر في غفلة منها، هي سيرة روائية، تنطلق من توظيف المتخيل الحقيقي الواقعي في نسيج فني مدهش وتقنية سردية آسرة، تأخذ القارئ إلى عوالم مليئة بالمشاهد المأساوية الدرامية المؤلمة، التي تحاول دغدغة مشاعره، وشده للتتبع مراحل تطور الحكي، ليتعرف على أحداث المأساوية، هي الفاجعة، فيتفاعل معها بأسلوب يتراوح بين المسحة الرومانسية والدفق الواقعي...بلغة شاعرة متوثبة، راقصة بين ثنايا الكلمات الذاكرة المفتوحة[1]، مستودع التجارب المشحونة ... مشكلة أيقونات المعنى، ومنتهى الدلالات. رافلة تسبح في سهوب وتجاويف المعرفة والتأويلات ...

رواية " التوابيت " رسم فني للأحداث جسام وقعت، وحالات رهيبة حلت بالجزائر . هي رصد دقيق لحركة الحيز الزمني، يصدم القارئ، فيدرك أنه أمام زمن مغاير[2]، لما عاشته البلاد ما بعد الاستقلال . إنه زمن الإرهاب الذي غطى ربوع البلاد طيلة الفترة الممتدة ما بين 1992. و2001 ...

نص"التوابيت" سيرة روائية (يتقابل فيها الراوي والروائي، ويندرجان معاً في تداخل مستمر، يكون الروائي مصدر لتخيلات الراوي)[3] . هي وثيقة تؤرخ لهذه المرحلة من منظور سردي روائي، يتداخل في نسيجها البعد الواقعي بالتخييل، العجائبي بالغرائبي، الحقيقة بالوهم، المعقول باللامعقول، المنطق باللامنطق والحاضر بالغائب ... إنه الزمن الأسطوري زمن الجنون؟ لأن الواقعة الحقيقية لا تحتفظ بكينونتها الماهوية –كما وقعت – بعد أن تصبح موضوعاً للسرد، إذ يعاد بناؤها وفق شروط تختلف عن شروط إنتاجها، لتندرج في سياق التشكيل الفني [4] . والسيرة الروائية لا تطابق فيها بين الشخصية الحقيقية وسيرتها والشخصية الروائية . لأن المطابقة الكاملة بين الواقعة التاريخية والوقائع النصية مستبعدة . فالاهتمام ينصب في البحث على الوضعيات والكيفية...ودرجة الاستيهام[5] .والتماهي الحكائي يعكس واقعاً معيشاً حيث تتضارب المفاهيم وتنهار القيم ليحل بدلها قيم جديدة مخالفة ومغايرة لجيل جديد مخالف ومغاير لسابقه[6]

الروائي يمارس المراوغة، والإغواء في كشف البنية الفكرية المتوارية خلف الأحداث، بلغة شعرية آسرة .لأن كل نص يعكس ظروف إنتاجه بشكل مختلف عن العوامل التي ساهمت في صناعته - أي النص- والسياق الذي احتضنه . ليس من حق الروائي أن يؤول عمله، لأنه بذلك سيغتصب حقاً أساسياً من حقوق المتلقي . فالرواية هي؛ "آلة مولّدة للتأويلات"آلة كسولة تعيش على فائض المعنى الذي يضيفه القارئ . وقوة أية رواية تكمن في كونها قابلة للتوليد الدلالي المتنوع والمتنافر من التأويلات التي يخلص إليها النقاد والقراء.

والقارئ مهمته تكمن في الكشف واستثارة المعنى من مكمنه.. بوضع اليد على ما هو ماثل أمامه من بنى فكرية، لغوية، وفنية[7] . وتأويل عنصر ما في النص الروائي، لكشف شفراته، يختلف باختلاف الشخصية الناقدة، وباختلاف الفترة التاريخية التي تحتضن فعل القراءة، لأن تأويل أي عنصر في السرد يدرج في نسق، ليس هو نسق النص السردي، ولكنه نسق الناقد[8] إن أفق انتظار القارئ يحدد نوع التلقي، ولا يمكن لأحد أن يخرق قناعات المتلقي [9] إلا بتواطئه هو لأنه وحده المالك للتأويل ...

" إن الكون النصي لا يمكن أن يدرك وأن تفك رموزه إلا من خلال وجود تشابه بين التجربة المؤسسة فنياً(بنية مخيالية محددة من خلال قوانين الفن)، وبين التجربة الفعلية (بنية واقعية تتحكم فيها قوانين عالم التجربة المحسوسة أي التجربة العادية). إن هذا التشابه هو ما يسمح بإمكانية الحديث عن شيء اسمه التواصل بين المبدع والمتلقي .كيفما كانت نوعية هذا التواصل"[10]

رواية "التوابيت" نص يجسد الوقع الزمني والإيقاع الحدثي الذي يتراوح بين الخفة، والكثافة في سرد الوقائع الممتدة على امتداد عشرية كاملة مفعمة بالفواجع والأحداث الجسام وهي وثيقة فنية شاهدة على أحداث طالت الجزائر ردحاً من الزمن . هي إدانة للممارسات اللامسؤولة التي أفرزت وضعاً إشكالياً لا زلنا نعيش عصر هضمه ...

ما ميز الروائي الشاعر سحر لغته . السحر اللغوي الذي إذا غاب عن العمل الروائي غاب عنه كل شيء، غاب الفن، وغاب الأدب[11] لأن البعد الجمالي هو بحث في نسق العناصر المشكلة للظاهرة في نظام لغة الجنس السردي سوا أكانت – تاريخية، اجتماعية، سياسية ...- لتبيان السنن الوظيفية التي تجسدها اللغة داخل بنيات العمل السردي[12]

بعد هذه الومضة التي حاولت فيها رصد مقومات النص السردي نلج عوالم " التوابيت " لكشف علاقة الواقعة التاريخية بالبنية السردية في تجسيد الصراع القائم بين مكونات السرد من خلال محطتين :

1- الصراع على مستوى النص المحيط (الغلاف، العنوان، كلمات الناشر، الإهداء والهوامش..)
2- التداخل الإجناسي علي مستوى اللغة والبناء الدرامي

1- نتعرض إلى الصراع على مستوى النص المحيط كلمة الناشر التي هي جزء من الرواية اختاره الناشر ليكون كلمته :

ألف - (لم تكن تلك الليلة عادية ..

عاودني كابوس المرأة والقصر والخيول الرمادية والصخرة وأشياء أخرى ..

هذه المرة شاهدت قلعة أخرى على منحدر جبل يطل منها فرسان شعورهم طويلة، وسيوفهم قصيرة وعلى رؤوسهم خوذات نحاسية تلمع..

كنت أقترب من القلعة وأنادي"يا حاكم القلعة..أنا سائح في أرض الله.. هلا سقيتني ماء؟! "

يأتيني صوت من خلف الجدران الصلدة :"أشرب من قليلاً من الرمل فهو أعذب من ماء القلعة ."

يا حاكم القلعة ..قد مت عطشاً، كيف تقابل ربك يوم لقيامة ..ذنبي في رقبتك ! "

لست أول من يموت .. إنهم يموتون كل يوم .

أريد قطرة ماء ..

وأنا أريد قطرة دم ..

تأتي الغربان البيضاء تحاصرني من كل جانب فتختفي القلعة تماماً وأنا أصرخ ماء..ماء..ماء . أفقت على صوت زوجتي وهي تقول لي"واش بيك .. البارح ماء واليوم ماء ..اتقول راك عايش في صحراء !." ..أسندت ظهري إلى المخدة المبتلة عرقاً وأنا استغفر الله ..ثم استسلمت إلى نوم عميق ...)[13]

فتصفح هذا النص الذي يبرز تقنية هذه الرواية التي هي نسيج مبني عبر آليات **التداعي والأحلام والمناجاة** وهي قناع فني عبر الروائي من خلالها عبر التماهي بين الواقع الحياتي والواقع النصي باعتماد البعد الغرائبي الذي ينم عن هول ما يعانيه الراوي من متاعب تجلت في فقدان أهم عنصر للحياة الماء. وكيف حاول الراوي طلبه من حاكم القلعة وكيف كانت الإجابة ..فلما يئس تخلص من هذا العناء بالعودة إلى الواقع .. والنص هذا مفعم بالدلالات المضمرة التي يمكن للقارئ استنتاجها لكشف علاقة الحاكم بالمحكوم .وهذه آلية لدفع القارئ إلى اقتناء النص وقراءته ...

ونقف على نص ثان داخل الغلاف .فإذا كان الأول حكاية حلم مزعج تخلص منه بالاستيقاظ، فإن النص الثاني قطعة شعر يصب في نفس الاتجاه الدلالي

ب- أنا طائر المتعبين بأحلامهم

ليس لي أجنحة

وطني ساحة للجنازات والأضرحة

أنا طائر أتعبته النجوم فمات

أتنفس من رئة الصمت والكلمات

فتلبسني المقبرة

وتحرق أشرعتي المجمرة

هل أنا وردة من رحيق المساء
أم الوردة انكسرت في نهايات صمتي
ولم تحترق
أتنفس شيئا من الحب
لا الأوكسجين يزرع في رئتي
بقايا الذي كان مني..[14]

الملاحظة الأولى التي يستنتجها الدارس تتجلى في مجالين
الأول شاعرية اللغة في النصين
والملاحظة الثانية تبرم السارد من وضع قائم .. يحاول تفسير مجرياته، وتأويل تركيبته
النص الأول يشي بمقدمات الموت، غياب الماء والنص
الثاني يجسد الموت الذي جعل من الوطن ساحة للجنازات والأضرحة

ج - العنوان " التوابيت'

ملفوظ مسكون بدلالات تهيمن على بؤرة تصور القارئ ونحيله إلى معاني الموت والمقابر والعالم الآخر. وكل ما يتداعى عند قراءتها من دلالات مشحونة تحيل على الفناء والنهاية. إنه الخلاصة التي وصلت إليها الرواية في عرض أحداث العشرية السوداء .وما أضفى على العنوان مسحة الحزن والكآبة تداخل الألوان .الأسود . الأحمر . الأبيض[15] فالمزج بين لونين أو أكثر يعد إستراتيجية قائمة على تبين مسبق للدلالات الممكن بناؤها من خلال مزج هذه الألوان.لأن كل لون مرتبط عند المتلقي بشكل واع أو غير واع بدلالات بعينها. واللون أداة تعبيرية تتجاوز الإحالة على وجودها الداني إلى الاستعمال الإستعاري[16] .فاللون الأحمر هو لون الاندفاع والحماس والدم والثورة والحرارة .كما يدل على الخطر والحرب والموت .. أما اللون الأبيض فهو لون دال على النقاء والصفاء المطلق ببعديه المادي والمعنوي ..دال على السكينة والسلام . والطهارة .وفي ثقافتنا الإسلامية يدل على الحزن والأسى ... أيضاً .واللون الأسود الحزن والأسى والموت .. كما يدل على النهاية الفاجعة . وفي ثقافات أخرى دلالة على النهاية .. إن المزج بين هذه الألوان من حيث الإخراج يرمي إلى جلالة الحزن والأسى والموت وهذا البعد منسجم مع صيرورة الفعل السردي في هذا النص الإشكالي

د- الإهداء ..

"إلى شهود روايتي أحياء وأموات
إلى الشعب"

فالعمل كما نرى هو موجه إلى أكبر مقوم في بنية الوطن الذي هو الشعب بكامله يخبر عن المأساة بكل تفاصيلها .فهي شهادة مدوية في وجه الزمن والنسيان .. تؤرخ لفترة مظلمة من تاريخ الجزائر المعاصرة

2- نتحول إلى العنصر الثاني الذي نحاول مدارسته التداخل الإجناسي علي مستوى اللغة والبناء الدرامي الصراع المحوري بين مشكلات البنية السردية الذي يمثله تداخل الأنواع بين الفن الشعري والنثر الفني فالصراع بينهما يضع الكتابة على تخوم المحكي الشعري[17] . فتحتل وحدات شعرية مساحات من النص السردي. كما تهيمن على مفاصل المحكي لغة شاعرة ومقطوعات شعرية تتداخل مع التاريخ والنصوص الدينية والسياسية كما تتداخل مع الأعلام من كل الثقافات ..

عدد الصفحات التي تضمنت قصائد شعرية ومقطوعات في25.صفحة من255 ما يمثل عشر الكتاب 21. 43. 135. 139. 140. 141. 142 .143. 144. 145. 155. 175.177. 178. 179. 180. 181.182. 183. 184. 185. 186. 187. 188.218

نأخذ مقطعا سرديا من وسط الرواية لنعلل على ما ذهبنا إليه

ألف- (تثاءب وجه المدينة ذات صباح

وأوجس خيفة

غراب على كتف الدار ينعق

طفل على شرفة ضاحكاً

أسقطته قذيفة

بكت أمه..

قتلته الشوارع بالدم ...

لا تقلقوا.. إنها ثورة ..

هكذا علقت ذات فجر صحيفة.

قال لا تكتب شيئاً آخر عن أكتوبر يكفي الذي قلته في هذا النص الذي اختزل حالة عميقة .. التوابيت مرت وأنا باق هنا انتقل من شارع إلى شارع آخر ..:أقرأ في الوجوه المرهقة تعب السنين .وكانت النعوش تمر وأنالا أرى شيئاً سوى الوطن يتعب بمقابره المتخمة بالجثث المنسية)[18]

الروائي يكشف الغطاء عن حقبة تاريخية يمزج بين الشعر والتاريخ والسياسة في توليفة مؤلمة، تصف ما وقع في أبشع صورة ... صورة القذيفة التي تخطف طفلا ضاحكا ...صورة النعوش والمقابر المتخمة بالجثث المنسية دلالة على فظاعة ما وقع...وفي مقطع سردي آخر يسترسل الراوي في سرد وقائع الموت يقول:

ب- (بعد أن ازداد عدد الضحايا لم يعد ممثلو الدولة يحضرون الجنازات ويقدمون العزاء .. صار الموت شيئاً عادياً لا يختلف عن أي شيء موجود بوفرة في السوق)[19]

الدلالة الطافحة والنسق المهيمن، يتأرجح بين الموت والحياة ب، ين الصمت وكلام الصمت . فيعرض لنا الراوي توفقاً يجمع عليه البات والمتلقي بين قصدية النص الذي يكثف من فضح الممارسات اللامسؤولة، وقصدية القارئ هيمن عليه تدفق الحكي بلغة آسرة، وتقنية سردية جسدها

التداعي، والمناجاة والحلم المزعج الذي يتخلص منه الراوي عبر تقنية اليقظة. فهو يراوح بين الحلم المزعج واليقظة المخيفة ...لكشف واقع متهر لا ينبئ بخير في المستقبل ..وهكذا يستمر التدفق الروائي يمزج بين ثنائية الموت والحياة إلى نهاية الرواية . ويختم الراوي الرواية بنص موجه إلى القارئ قائلا له

(من استطاع أن يفسر تلك الرؤى والكوابيس فليفدني ....

معذرة لم أرو كل شيء)[20] وتبقى النص مفتوحا على التأويلات المفسرة لتلك الرؤى والكوابيس التي كانت تقنية سردية تكشف الغطاء عن المستور ...

مراجع البحث وإحالاته:

1. سعيد بنكراد : سياق الجملة سياق الفهم مجلة علامات العدد 33/2010..ص.16
2. انظر سعيد بنكراد : الصورة الإشهارية آليات الإقناع والدلالة .المركز الثقافي العربي. ط.1 . البيضاء المغرب ..ص38
3. عبد الله إبراهيم : السرد والاعتراف والهوية .المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط.1 2011...ص:173
4. م.س ..ص:174
5. م س: ص :174
6. محمد معتصم : النص السردي العربي .شركة النشر والتوزيع المدارس الدار البيضاء المغرب ط/1/2004..ص55
7. سعيد بنكراد مقال بعنوان " سياق الجملة وسياق الفهم " مجلة علامات العدد 33/ 2010 ص: 13/12
8. تعريب مجموعة من الباحثين : طرائق تحليل السرد الأدبي ..ط/1/1992/ الرباط ..ص:40
9. عبد الله إبراهيم : السرد والاعتراف والهوية ..ص 175
10. سعيد بنكراد النص السردي نحو سيميائية للأيديولوجيادارالامان الرباط ط/1/1996..ص33
11. عبد الملك مرتاض :في نظرية الرواية ..عالم المعرفقة 240 الكويت /1998/..ص131
12. مجموعة من الباحثين : جماليات المكان عيون المقالات ط/2 /1988/ الدار البيضاء المغرب
13. رواية "التوابيت" الغلاف
14. رواية التوابيت الغلاف
15. يراجع سعيد بنكراد الصورة الإشهارية ..ص:162 163..164
16. م.س ..ص 159
17. إستراتيجية التجريب ص:136
18. رواية التوابيت 156.157
19. رواية التوابيت ص ..146
20. رواية التوابيت ص ..255